أم الخير البارقية ومناظرتها مع معاوية

م. نضال حسن جاتول
مركز دراسات البصرة والخليج العربي
جامعة البصرة

الملخص

خلاصتنا لهذا البحث وجدنا ان ام الخير اتجهت في مناظراتها الاتجاه العقلي، عن طريق الاخذ والرد والذهاب والاياب والمناقشة والدحض العلمي الفني الادبي الممنهج والقوي المستند الى مقابلة كل فكرة بما يلائمها، وتبدو الغايات متعارضة في المناظرة بين طرفي النقاش الادبي الفني السياسي الديني ولكل منهما وجهة نظر.بالاضافة الى اسلوبها الذي اتسم بالبساطة ، والقوة، ومباشرة المعنى ، والمنطقية ، والرد السريع الواثق المفحم ، وهو من اهم سمات المناظرة الناجحة ، كذلك المستوى البلاغي من خلال استخدامها لاكثر من اية قرانية كشاهد ومقوي للفكرة التي تريد ايصالها .

Umm al-Khayr al-Bariqiyya and her debate against Muawiyah

Lect. Nidal Hassan Chatoul
Basra and Arab Gulf Studies Center

University of Basrah

Abstract

Umm al-Khayr al-Bariqiyya She was among the eloquent, skillful ladies and was famous for her allegiance and loyalty to Imam Ali. At the Battle of Siffin she urged the people to battle against Muawiyah. She also urged them to defend and support Imam Ali. Mu'awiya felt pain because of her attitudes. He harbored malice and enmity against her.

She acivated in her debates the mental orientation

, By taking and responding a scientific discussion and refutation of literary art which is based on an interview every idea by its suitable one to show the contradictory in the debate between the two sides of the argument. She had her unique style which was characterized by simplicity, strength, direct sense, logical, rapid response and trustworthy cogent. This was an important features of successful debate as well as rhetorical level through her using for more than any Quranic as a quotation.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الإله الواحد العظيم العليم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد وعلى آل بيته وصحبه ، نشهد أنه رسول الله وأنه عبده ...

جاءت اللغة العربية منذ نشأتها بكثير من النصوص الفنية والأدبية والبلاغية وكان فن المناظرة احد هذه الفنون التي ظهرت بين الناس، فقد كانت طريقة حضارية في النقاش الفعال وإثبات وجهات النظر المتعددة[١]، ويخطئ من يظن أن المناظرات بدأت في عصرنا هذا ، بل هي فن قديم جدا ، كانت منذ بدء المنافسات والصراعات المتعددة وسيلة فنية أدبية لتبادل الأفكار ، والتعبير عن الحجج والمسائل المتعددة ، وقد برز هذا الفن في " العصر الأموي ، وهو عصر كثرت فيه الصراعات الطائفية والسياسية والقبلية "[٢]. اذ شهد حركة أدبية فنية ثرة في هذا العصر،عبرت عن الصراعات الدائرة ، كان منها المناظرات، التي هي فن يفرض نفسه، لأن أصحابه من أرباب البلاغة والفصاحة من جهة، ولأنها من أكثر الطرق اللغوية الفعالة البارزة في إثبات القوة والمنطق والمقدرة اللغوية من جهة اخرى ، ولذلك فدراستها ثقافة مهمة لإغناء اللغة العربية، وتشتهر في العصر الأموي مناظرة البارقية ومعاوية، أي بين قطبين مختلفين غاية الاختلاف، فتلك امرأة وذاك رجل وخليفة، ولذلك فدراسة المفارقات المتعددة أمر ممتع وغني في الوقت نفسه ، يجسد الخلاف الضخم الذي رسم معالم السياسة في ذلك الزمن والى وقتنا الراهن، ذلك أنه يرسم الخلاف بين أكبر

طرفين متصارعين في العصر الأموي سياسيا ودينيا ، ولدراسة هذه المناظرة تخيرنا المنهج الأسلوبي التحليلي ، وحاولنا الاعتماد على بعض الكتب التي تناولت هذا الموضوع ومنها :

١- سراج ، مسعود النايف ، بلاغات النساء القدماء وسيرورة النهضة النسوية الثقافية القديمة ، ١٩٨٩ م .

٢- أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ٢٠٠٠م .

٣- جبران ، نائل فايز أبو فادي ، المجتمع العربي في العصر الأموي والصراعات المخفية ، ٢٠٠٣ م .

٤- العقاد ، عباس محمود ، معاوية بن أبي سفيان ، ٢٠٠٦ م .

التمهيد :

أم الخير البارقية نسبة إلى قبيلة البارق ، وهي قبيلة مشهورة في الإسلام وما قبل الإسلام ، وكان مستقرها الكوفة ، واسمها أم الخير بنت الحريش بن سراقة بن مرداس بن الحارثة بن البارقي بن بارق بن عدي بن حارثة بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف[٣]، وكان موقف أم الخير البارقية مشهوراً ومعروفا في صفين ضد معاوية[٤] .

وأما " معاوية بن أبي سفيان فأمه هند بنت عتبة "[٥]، وهو " معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف"[٦]، كانت وفاة معاوية سنة ٦٠هـ في مدينة دمشق ، وقد نشأت خصومة كبرى بينه وبين علي بن أبي طالب(عليه السلام) فحاربه وانتزع الخلافة منه ولم تكن حقه ولا كفؤا لها ، فوقف في وجهه خلق كثير ومنهم الشعراء والخطباء والبلغاء ، ومعاوية خليفة أموي اشتهر بالحلم والدهاء السياسي ، وكان يحب أن يقال عنه حليم ويتصيد المواقف مع أعدائه ليظهر حكمته السياسية ولطفه وحزمه الذي في موقعه مع الناس ، ذلك أنه كان يخاف على سلطانه ، ويرى العقاد أنه لم يفخر بشيء كما فخر بحلمه خاصة[٧].

موضوع المناظرة والغاية منها :

***موضوع المناظرة وعرض لها :**

لا تكتفي المناظرة عند البارقية ومعاوية بموضوع واحد ، بل يشترك في السباق الحواري كثير من الشخصيات والموضوعات الدينية والسياسية وغيرها ، كما لا تكتفي المناظرة بعنصر النثر العادي فقط ، بل تورد كثيرا من الآيات القرآنية المختلفة في سبيل الإغناء وقوة العرض وتدعيم الفكرة فترد النصوص

المقدسة ، والتفسيرات البلاغية المقنعة ، والنص ليس أسلوباً واحداً ، بل ينوّع في أساليبه وأفكاره بوساطة الاستطراد فينتقل من فكرة إلى أخرى ، مانعا الملل مشوقا القارئ ولكن هذا ليس هدفه الأساس بل هدف معاوية من هذه الأسئلة المتتابعة إحراج البارقية ومعرفة كيف سترد وإقامة الحجة عليها وإحراجها ربما ، وهو لا يعتمد على العنصر الخلقي وحده في المناظرة التي لا تكفي بهذا فيركز كعالم باللغة وعارف بها على العنصر اللغوي المتنوع ، والأدبي الفني ، وهكذا لا تقتصر المناظرة على بعض الحجج يقدمها صاحب الخلافة ، بل تقوم كنوع من الحوار الجدلي المشوق والحماسي المندفع .

ويظهر الاتجاه العقلي واضحا في المناظرة عن طريق الأخذ والرد ، والذهاب والإياب ، والمناقشة والدحض العلمي الفني الأدبي الممنهج والقوي المستند إلى مقابلة كل فكرة بما يلائمها ، فهما يتناقشان ، ويردان على بعضهما بالحجة والمثال ، وهذا ما نجده في المناظرة التي سنعرضها كلها فيما يلي :

"أوفد معاوية أم الخير بنت الحريش البارقية فقال لها: كيف كان كلامك يوم قتل عمار ابن ياسر؟.

قالت: لم أكن والله رويته قبل ولا دونته بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت، قال: لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم حفظ كلام أمر الخير؟ قال رجل من القوم: أنا أحفظه، قال: هاته، قال: نعم، كأني بها في ذلك اليوم وعليها برد زبيدي كثيف الحاشية، وهي على جمل أورق أربد، وقد أحيط حولها حواء، وبيدها سوط منتشر الضفر، وهي كالفحل يهدر في شقشقته، تقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ }[٨]. إن الله تعالى قد أوضح

الحق، وأبان الدليل، ونور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمةٍ، ولا سوداء مدلهمة، فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله سبحانه وتعالى يقول: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ }[٩]، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ }[١٠] ، ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين وانتشرت الرعية، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر. إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }[١١]، صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرةٍ لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى {قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ}[١٢]، حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة، إنه ولله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار. أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطؤوا مدة الآخرة فسعوا لها. والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول اله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه، خلق من طينته، وتفرع من نبعته، وخصه بسره، وجعله

باب مدينة علمه وعلم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله تعالى بمعونته، ويمضي على سنن استقامته. هو مفلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون، وأطاع و الناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وفرق جمع هوازن، فيا لها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً وردة وشقاقاً. قد أجهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ووالله لو قتلتك ما حرجت في ذلك، قالت: والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجري الله تعالى ذلك على يدي من يسعدني الله تعالى بشقائه.

قال: هيهات يا كثيرة الفضول. ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه؟ استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون، فقال معاوية: إيهاً أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبنين عليه. قالت "لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً"، ما أردت لعثمان نقصاً، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة؟ اغتيل من مأمنه، وأُتي من حيث لا يحذر. وقد وعده رسول الله صلَ الله عليه واله وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير؟ ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، لقد كان سباقاً إلى كل مكرمة من الإسلام. وإني أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشاً تحدث بأنك من أحلمها من الإسلام. فأنا أسألك بأن تسعني بفضلك وحلمك، وأن تعفيني من هذه المسائل، وامض لما شئت من غيرها.

قال: نعم وكرامة، وقد أعفيتكِ، وردها مكرمة إلى بلدها."[١٣]

***الغاية من المناظرة :**

تبدو الغايات متعارضة في المناظرة بين طرفي النقاش الأدبي الفني السياسي الديني ، فهناك طرفان للمناظرة وهما الطرفان الأساسيان وهما معاوية وأم الخير البارقية ، ولكل منهما وجهة نظر ، وكل واحد منهما يقع على طرفي نقيض من الناحية الدينية والسياسية ، "والمناظرات بشكل عام تقوم على مبدأ المعارضة والمخالفة بين أطراف الحوار أو الأخذ والرد في المناظرة "[١٤]، ونلاحظ أن علو مكانة معاوية بمعنى قوته عليها في وقت المناظرة لم يؤثر في قوة خطابتها وبلاغتها ، ولم يضعف أو يزعزع أفكارها أو يشتتها ، بل بقيت محافظة على ردود فعلها الذكية وحسن بديهتها التي لم تسمح له أن يؤول كلامها أمام الحضور بشكل خاطئ أو يستفيد من ثغرات كلامها ضدها كما هي عادة معاوية في تحوير الأحداث المتنوعة، لقد عمل معاوية على إحراجها بالأسئلة المتنوعة، وعمل على تذكيرها بقولها لما سألها فلما لم تعد كلامها يوم صفين ، حاول أن يحرجها فأتى مستغلا نفوذه بمن يقوله بالحرف عنها، وكأنه يضع عليها الحجة، ولكنها وقفت أمامه عندما تمسكت بأقوالها وتابعت طريق الحجج المرصع بالمنطق والقرآن الكريم .

أسلوب المناظرة ومستواها البلاغي :

***أسلوب المناظرة :**

لقد اتصف أسلوب أم الخير البارقية بالبساطة ، والقوة ، ومباشرة المعنى ، والمنطقية ، والرد السريع الواثق المفحم ، وهو من أهم سمات المناظرة الناجحة ، فقد رفعت مستواها لمستوى الحاكم لتناقشه دون خوف ، ولتستغل صفاته ومكانته

ضده كما فعلت في النهاية ، فهي لم تمدحه فعليا لتنقذ نفسها ، وإنما وقفت أمامه بشجاعة وقوة ، وفي النهاية وصفته بالحليم لتستغل هذه الصفة ضده ، ولكننا نرى فيها إشارة خبيثة غير واضحة المعالم للموقع السياسي الحساس الذي يشغله معاوية ، فصحيح أن معاوية انتصر ، وأصبحت له الكلمة الفصل في أرواح الكثيرين ، وقد قام فعلا بأفعال شائنة متعددة فيهم ، ولكنه بطبيعة الحال ، وبأساس هذا التركيب الاجتماعي العربي القديم[١٥]، لم يكن ليستطيع أن يظهر على هيئة الجزار عديم الرحمة ، والعجول غير المفكر ، فهو سياسي أولا ، ولذلك فهو يريد أن يبدو أمام شعبه قويا سمحا ، وإنما صفة الحلم التي اشتهر بها إنما أتت من حاجته السياسية إلى التفكير والتخطيط بالإضافة إلى أنه رجل داهية لا يريد أن يُعرف بالتهور والطيش كيلا تضعف مكانته السياسية في أعين مناصريه ، فإذا قام بالانتقام من كل إنسان وقف في وجهه فقد يضر مكانته وانتصاره وسيظهر بمظهر القاتل عديم الرحمة ، كما أن العفو عن بعض من قاوموه سيثبت حكمه ، ويهدئ ربما بعض النفوس ، ويثبت صفة الحلم والرشاد فيه ، وسيحدث بعض التزعزع ربما في نفس بعض المرتبكين تجاهه ليظهر بمظهر أفضل مما سبق ، ويبدو عافيا عن الناس و متسامحا ، " فالمناظرة فن يقوم على محاولة الكسب بأي طريقة ومحاولة إثبات وجهة النظر بالنغمة ، والسؤال ، والجواب ، والأسلوب ، والنهاية "[١٦] .

لقد جعلت النهاية التي في المناظرة معاوية يبدو حاكما عادلا سمحا يعفو عن ألد أعدائه ولذلك تبدو المناظرة التي تفوقت فيها أم الخير البارقية في جميع أجزائها تنتهي لمصلحة معاوية السياسية لأنه استغل حنكته الدينية والسياسية من أجل أن يمتص ربما الغضب الشعبي الذي ربما طاله ، ويعزز موقفه من الامام

علي (عليه السلام) وأتباعه ليبدو هو العادل السمح الرؤوف الذي لا يبتغي بطشا ، والذي لا ينتقم من النساء .

ويتجه الأسلوب عامة في مناظرة البارقية ومعاوية اتجاها مليئا بالحركة ليعطي القارئ الشعور بالتوثب والحماس ، ففي المناظرة :

" فقال لها: كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟

قالت: لم أكن والله رويته قبل ولا دونته بعد، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فعلت، قال: لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال: أيكم حفظ كلام أمر الخير؟ قال رجل من القوم: أنا أحفظه، قال: هاته، قال: نعم"[١٧] .

نلاحظ في هذه المقالة الأخذ والرد ، وإصرار معاوية على مناقشة الشق السياسي ، فمعاوية لم يأتِ بأم الخير ليستفيد من بلاغتها ، أو يتعرف على مقدار فصاحتها ، وقد رفض أي كلام جديد في عمار بن ياسر ، بل هو يريد أن يحاسبها على الكلام السابق ، وربما هو لا يريد الجديد لأنه لا يريد مزيدا من الكلام فيه ، ولا يريد أن تقوم عليه الحجة أكثر ، ولا يريد أن يسمع إلا ماوصله وما أراد معاقبتها عليه ، لتبدو المناظرة في الواقع استجوابا قاسيا من ذوي السلطان ، تفلت فيه البارقية من العقاب بواسطة حنكتها ربما لأنها علمت أهمية وحساسية موقعه السياسي وأرادت استغلاله ضده ولعلمها بمدى وحشية وعنف السلطة والتي لا تتوانى من فعل ما هو أسوأ من القتل ، فهي لم تكن تنجو بروحها لأنها شاركت في المعركة دلالة عدم خوفها من الموت ، وربما أرادت تفادي الانتقام الشرس من معاوية، وقد فعلت ذلك فعلا عن طريق حنكتها وذكائها . فعلى المستوى الأدبي الفني البلاغي فازت البارقية ببلاغتها وحسن

ردها ، وذكائها الفلسفي والعلمي في الرد ، ولكن على مستوى الموقف الخادم لمعاوية نستطيع تسجيل هذا الموقف له والذي فعله ليربك أعداءه أو ليثبت صفة الحلم فيه وهو من يحتاجها سياسيا .

ولا نكرر أن الأسلوب أتى في غاية القوة في الجدال المنطقي الحازم ، والرد المفحم ، وهذا لا يرجع فقط إلى قوة اللغة التي امتلكت البارقية ناصيتها ، بل يعود أيضا الحنكة والدهاء والتفكير المنطقي والرد الواضح في الجدال المنطقي ، وربما هذا ما كفل لها هذه القدرة العالية في المناظرة على مواكبة اتهامات معاوية والرد عليها منطقيا بأسلوب بليغ ، والمنطق والسرعة في البديهة لديها ظهران في :" فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ووالله لو قتلتك ما حرجت في ذلك، قالت: والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجري الله تعالى ذلك على يدي من يسعدني الله تعالى بشقائه.

قال: هيهات يا كثيرة الفضول. ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه؟ استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون، فقال معاوية: إيهاً أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبنين عليه. قالت "لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً"، ما أردت لعثمان نقصاً، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة"[١٨]

فقد استذكر معاوية كلاما لها سابقا في موقعة صفين ، وأراد أن يبرر ويجد المسوغ لقتلها ويحرجها[١٩] ويقيم عليها حجته ، ولكنها جابهته بقوة ، ولم تتراجع عن موقفها ، وإنما أتى بذكر عثمان بن عفان في سياق الخطاب النصي في هذا الموضع ليبرر فعائله ، ويقوي حجته ، وهو من قام بالاستيلاء على السلطة بذريعة الانتقام له ، وعندما أدلت برأيها حاول أن يبين أنها من الحاقدين على

عثمان المشتركين بجرم خذلانه ومحاربة من حمل ثأره – وهي فكرة جاهلية في الأساس – ولكنها لا تلبث أن تقطع عليه حجته وطعنه من خلال قول كلمة الحق التي تراها في عثمان ، وبذلك يبدو عثمان مهاجما في المناظرة ، وهي لا ترد فقط بالدفاع ، بل ترد بقوة وتهجم عليه بأن تبين موقفها بقوة وإحكام وثبات ، وتقول كلمة الحق التي تراها فيه من ظلم وفساد ، والواقع أن وصفها لمعاوية بالحلم في نهاية المناظرة لا يناقض على الإطلاق ما فعلته على مدى المناظرة من طعن فيه، لأنها أولا : أثبتت صدقها وعقلانيتها ومنطقيتها من خلال قول كلمة الحق حتى في أعدائها ، وثانيا : لأنها لم تصفه بالحلم في موضع خير ، فالمقصود هنا في الواقع الحلم السياسي والذكاء في موضع الحصول على إرادته السياسية ، وليس كثرة الأخلاق فيه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد قالت ذلك على لسان غيرها ، ولم تؤكده ، تقول : " وإني أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشاً تحدث بأنك من أحلمها"(٢٠).

فقريش هي من تتحدث وهي لم تصفه بنفسها بذلك ، أو أن هذا الحكم لم يصدر عنها ، كما أنها بإسناد الفعل إلى قريش في إطلاق هذه الصفة على معاوية تحرجه وتمس فكرة سياسية حساسة فقريش لها مكانة كبرى وهي أصل معاوية فضلاًعن أنها تسأله بحق الله وهو من هدر دماء المسلمين غير مراع للحرمة الدينية ، فكأنها تحرجه دينيا كذلك ، ومن المعروف أن الطلب باسم الله أعظم طلب ولا يجوز رده .

***المستوى البلاغي :**

قد خلت المناظرة، كما رأينا، من أساليب الترصيع الصوتية إلا ما قل ، وذلك لأن التراتبية والتتابع لم يتركا وقتا جما لهذه الترصيعات ، ولكنها لم تهملها

تماما ، بل أتت في النص بشكل عفوي ، كما في قولها :" لم أكن والله رويته قبل ولا دونته بعد"[٢١] ، وفي قولها :" استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون"[٢٢] فالطباق الإيجابي بين قبل وبعد في المثال الأول ،والسجع والطباق في المثال الثاني المعروض ساهما في إضفاء نسق موسيقي على الكلام ، وتعميق للفكرة ، ولكنه يأتي عفو الخاطر ، ولا يبدو متكلفا ، ولا يبدو معاوية عنصرا فاعلا في المناظرة بشكل كبير ، ويقتصر دوره على السؤال المطعم بشيء من الاتهام ، وقد سألها في أعدائه ومنهم الزبير ، وسألها عن حجته وهو عثمان وحاول أن يظهرها بمظهر من يكرهه ولكنه لم يفلح لأنها سارعت إلى توضيح موقفها منه .

ولا شك أن المستوى البلاغي يقوى من خلال استخدامها لأكثر من آية قرآنية كشاهد ومقو للفكرة التي تريد إيصالها ، ولتضفي الصبغة الدينية على أقوالها أيضا ، وهذا بلا ريب يرفع من شأن الكلام البلاغي لأن القرآن أعظم نص بلاغي وروده في أقوالها يقوي حجتها ، ويدعم أسلوبها ، وذلك من مثل : "فقال معاوية: إيهاً أم الخير، هذا والله أصلك الذي تبنين عليه. قالت "لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً"، ما أردت لعثمان نقصاً"[٢٣].

وقد أشرنا إلى أنها لم تكثر من أساليب التزويق الموسيقي ، ولكن هذا في كلامها المباشر في مناظرتها لمعاوية فقط ، بينما في كلامها الذي أعاده معاوية على مسمعها على لسان أحدهم فقد كان مطعما وبشكل أكبر بالآيات القرآنية ، تقول ذاكرة الآيات القرآنية :

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ }[٢٤].

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ }[٢٥].
{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ }[٢٦].
{قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ }[٢٧].
{وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }[٢٨].

وتعبر هذه الكثافة السياقية من الآيات القرآنية المتنوعة والمتلاحمة بشكل متماهٍ ضمن سياقها النصي عن طبيعة النص الدينية ، وقوته التعبيرية ، فهو ليس كلاما تحريضيا تشجيعيا فقط ، وإنما أيضا هو كلام عقلاني يستند إلى الشريعة ومنطقيتها وواقعيتها ، ويمتلئ نص البارقية ضمن المعركة بالتنويع الموسيقي ، وبالتناسق الصوتي الواضح الباعث على الحماسة والقوة ، مثل قولها: "وأبان الدليل، ونور السبيل"[٢٩] ، وأيضا : "فلم يدعكم في عمياء مبهمةٍ، ولا سوداء مدلهمة"[٣٠]، فالسجع واضح .

وتتنوع الأساليب بين خبرية تدل على هدوء القائل الموحي بالثقة بأقواله المصدق لها ، والمقنع للسامع ، ولكنه هدوء أسلوبي فقط ، فالكلمات نفسها قوية إيقاعية توحي بالقوة مع الهدوء ، والتراوح الأسلوبي بين الخبر والإنشاء مهم جدا لأنه منح النص حيويته من جهة ، ولأنه منح النص الدفقة العاطفية القوية والحماسية التي يحتاجها في ذلك الموقع ليتصف بالفاعلية المرادة منه ، أي ليؤثر في نفوس السامعين ، تقول :
" فإلى أين تريدون رحمكم الله؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام؟ أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله سبحانه وتعالى يقول: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ }[٣١] ، {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ }[٣٢] ، ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين وانتشرت الرعية، وبيدك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله. هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل"[٣٣].

فنلاحظ كما أشرنا فيما سبق في النص المقتبس نلاحظ كثرة أساليب الإنشاء المتابعة سياقيا في النص، التي تعبر عن المشاعر المتدفقة والقوية والملائمة للموضوع التحريضي الحماسي ، وعندما تهدأ الدفقات الشعورية المتوالية التي تعبر عنها الأساليب الإنشائية القوية كالاستفهام والنداء والطلب، يرجع الأسلوب الخبري ، ولكن رنة الحماسة تظل قوية بفض الإيقاع الموسيقي، تقول : "والوصي الوفي، والصديق الأكبر. إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك بها ثارات بني عبد شمس. صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم"[٣٤].

وبعد أسلوبها الخبري المتتابع المليء بالقوة الموسيقية الحماسية تعود للإنشائي لتزيد من الحماسة عن طريق أفعال الأمر التي توحي بالقوة واللهفة والرغبة بالتحقق السريع[٣٥] وقوة هذا التحقق أيضا و ويمضي النص على إيقاع موسيقي قوي جدا ، ومدعم بالعاطفة الملتهبة ، والقوة المندفعة ، وهو ما يناسب المراد منه ،فضلا عن الإيحاء بالسرعة الذي تنوع من خلال الأساليب الموسيقية، والنداء ، وأفعال الأمر، والتحضيض والطلب ، والكلام في نسجه

مفهوم وواضح، وتتعاضد الصور التي توردها البارقية من أجل ترسيخ صورة القوة والحاجة للسرعة والفاعلية، فيجب أن يستجيبوا لأنه أمر مفصلي ، ولأهميته، فالتشبيه هنا يقوي الفكرة ، ويوصلها بقوة أكبر ، ويضعها في نطاق الإحساس الشعوري المادي للسامع ، تقول : " وكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرةٍ لا تدري أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى "[٣٦].

ونلحظ أن الحركية لا تتبع فقط مما ذكرنا بل هناك كثير من المناخات المسرعة والموحية بالقوة والسرعة من مثل المتضادات الخادمة والموضحة للمعنى، كقولها في الوصف : "صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون"[٣٧].

الخاتمة :

في نهاية هذا البحث المتواضع ، نرى أن البارقية كان لها فضل البلاغة والإجابة السريعة القوية ، وأنها استخدمت في خضم المواجهة أسلوبا هادئا بعيدا عن الترصيع الموسيقي لأنها تقابل خصمها في جو معركة من نوع آخر غير السيوف ، إنها معركة الحكمة وحسن الرد والمقال والمعرفة والعلم والبلاغة ، ولذلك فقد حافظت على اختصار إجاباتها من جهة لأنها في موقع إجابة على سؤال ، ومن ناحية أخرى فهي لا تتكلم مع شخص محبب إليها ، كما أن النقاش السياسي والدين في المسائل التي عرضها عليها معاوية يطول ، وهي فهمت مقصده ، فهو يحاول أن يوقعها في الخطأ ولذلك كانت إجاباتها حاسمة سريعة مختصرة مكثفة ، بينما كانت لغتها في المعركة الفعلية تختلف فهي رنانة، موسيقية ، مليئة بالحركة والنشاط والحماس مما يلائم المقال ، وهكذا نرى أن البارقية تصدت وبقوة في هذه المناظرة لمعاوية ، وأن المناظرات في العصر الأموي عكست الواقع الديني السياسي والصراع العنيف الذي قام بين فئات متعددة ، كما عكست هذه المناظرة بلاغة المرأة العربية التي لم تكتفِ فقط بالتفرج على الأحداث بل كانت صانعة لها ومحركا قويا لها ، مما يبرز دور المرأة العربية في مختلف المجالات ، كما أبرزت هذه المناظرة قدم فن المناظرات عند العرب و وتوقد أفكارهم ومعارفهم وقوتهم في النقاش والبلاغة والرد والجدل المنطقي الذي كان إرهاصا للتطور النثري والعقلي والمنطقي الذي حدث في العصر العباسي .

الهوامش

(١) ينظر : الشيخ ، بدري القرنفلي ، فن المناظرة وأصولها اللغوية ، دار الناجح ، القاهرة، مصر ، ١٩٩٨ م ، ص١٠٩ .

(٢) النادري ، سامح بدران ، العصر الأموي والنزاعات القبلية ، ط١ ، دار الإخلاص ، طرطوس ، سورية ، ٢٠١٠ م ، ص٣٢٦ .

(٣) سراج ، مسعود النايف ، بلاغات النساء القدماء وسيرورة النهضة النسوية الثقافية القديمة ، دار جمادة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٨٩ م ، ص١٨٤ .

(٤) ينظر : كحالة ، عمر رضا ، أعلام النساء ، ج١ ، ط١ ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م، ص ٣٨٩ .

(٥) ينظر : ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، المعروف بابن الاثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، الجزء السابع ، دار الكتب العلمية: ص٢٨١.

(٦) محمود ، نسرين بدوانة ، الشعر في العصر الأموي نهايات ورؤى ، دار المستقبل العلمي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م ، ص١٩٠ .

(٧) ينظر : العقاد ، عباس محمود ، معاوية بن أبي سفيان ، طبعة منقحة ومراجعة ، ط٦، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، أغسطس ، ٢٠٠٦ م ، ص٤٤ .

(٨)الحج ١.

(٩)البقرة ١٥٥ .

(١٠) محمد ٣١ .

(١١) التوبة ١٢ .

(١٢)المؤمنون ٤٠ .

(١٣)أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ط١ ، دار الزرقاء للطباعة والنشر والتوزيع ، الأردن ، ٢٠٠٠م ، ص٢١٠ – ٢١٤ .

(١٤)متوج ، كريم عبد الحميد المار، المناظرات أسسها ، قالبها الفني ،في العصر الحديث، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، تموز ٢٠١٦ م ، ص٢١ .

(١٥) كانت العرب تحسب حساب المجتمع المعقد في العصر الأموي ، فقد ثارت من جديد العصبيات القبلية ، وأصبحت التحالفات معقدة نوعا ما بين الديني والسياسي والقبلي ، ولا يجب أن ننسى أن كثيرا من الشعراء مما لم يناصروا حقيقة الحكم الأموي مدحوه ، أملا في العطايا أو النجاة ، وقد كان كثير من الحكام والولاة يحاولون إظهار رحمة ليست فيهم لتجميل صورة القتل والمذابح التي افتعلوها ، ينظر : جبران ، نائل فايز أبو فادي ، المجتمع العربي في العصر الأموي والصراعات المخفية ، ط١ ، دار الإخلاص ، طرطوس ، سورية ، ٢٠٠٣ م ، ص٣٠١ .

(١٦) جابر ، عبد الله جودت ، المناظرات في العصر العباسي في مؤلفات الجاحظ (دراسة أسلوبية) ، ط١ ، دار المنهل العلمي ، دمشق ، سورية ، ٢٠٠١م ، ص٢٠٥ .

(١٧)أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص٢١٠ .

(١٨)أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(١٩)كان العصر الأموي عصرا دمويا شهد كثيرا من الحروب والقتل ، ولتكن السلطة تألو جهدا في ملاحقة أعدائها والقضاء عليهم ، إما بإسكاتهم دمويا ، أو بإسكات أفواههم بالمال ، أو بالعفو المزيف عنهم ، ينظر : الغساني ، رشا علي ، العصر الأموي وقائع السياسية الحقيقية ، دار الإحسان ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧م ، ص ٨٣ .

(٢٠) أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص٢١٤ .

(٢١) أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص ٢١٠ .

(٢٢) الكتاب السابق نفسه ، ص٢١٤ .

(٢٣)الكتاب السابق نفسه ، ص٢١٤ .

(٢٤)الحج ١.

(٢٥)البقرة ١٥٥ .

(٢٦) محمد ٣١ .

(٢٧) المؤمنون ٤٠ .

(٢٨)التوبة ١٢ .

(٢٩) أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص ٢١١.

(٣٠) الكتاب السابق نفسه ، ص٢١١ .

(٣١)البقرة ١٥٥ .

(٣٢) محمد ٣١ .

(٣٣)أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص٢١١.

(٣٤)الكتاب السابق نفسه ، ص٢١٢ .

(٣٥) ينظر : علاء ، عبد العال قاسم فردو ، المعنى المعجمي والمعنى السياقي وظواهر البناء الهندسي في الجملة ، ط١ ، دار النوارس ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٩م ، ص٤٠ .

(٣٦)أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ص٢١٣ .

(٣٧)الكتاب السابق نفسه ، ص ٢١٤ .

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، المعروف بابن الاثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، الجزء السابع ، دار الكتب العلمية.
٣. جابر ، عبد الله جودت ، المناظرات في العصر العباسي في مؤلفات الجاحظ (دراسة أسلوبية) ، ط١ ، دار المنهل العلمي ، دمشق ، سورية ، ٢٠٠١م .
٤. جبران ، نائل فايز أبو فادي ، المجتمع العربي في العصر الأموي والصراعات المخفية ، ط١ ، دار الإخلاص ، طرطوس ، سورية ، ٢٠٠٣ م .
٥. سراج ، مسعود النايف ، بلاغات النساء القدماء وسيرورة النهضة النسوية الثقافية القديمة ، دار جمادة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .
٦. الشيخ ، بدري القرنفلي ، فن المناظرة وأصولها اللغوية ، دار الناجح ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٨ م .
٧. أبو الطيب ، سامر الصرمان ، النثر العربي القديم واللغة المكونة ، ط١ ، دار الزرقاء للطباعة والنشر والتوزيع ، الأردن ، ٢٠٠٠م .
٨. العقاد ، عباس محمود ، معاوية بن أبي سفيان ، طبعة منقحة ومراجعة ، ط٦ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، أغسطس ، ٢٠٠٦ م .
٩. علاء ، عبد العال قاسم فردو ، المعنى المعجمي والمعنى السياقي وظواهر البناء الهندسي في الجملة ، ط١ ، دار النوارس ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٩م .
١٠. الغساني ، رشا علي ، العصر الأموي وقائع السياسية الحقيقية ، دار الإحسان ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧م .
١١. كحالة ، عمر رضا ، أعلام النساء ، ج١ ، ط١ ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م.
١٢. متوج ، كريم عبد الحميد المار ، المناظرات أسسها ، قالبها الفني ،في العصر الحديث، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا ، الجامعة الأردنية ، تموز ٢٠١٦ م .
١٣. محمود ، نسرين بدوانة ، الشعر في العصر الأموي نهايات ورؤى ، دار المستقبل العلمي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م .
١٤. النادري ، سامح بدران ، العصر الأموي والنزاعات القبلية ، ط١ ، دار الإخلاص ، طرطوس ، سورية ، ٢٠١٠ م .